"إن الرائد لا يكذب أهله"

محاولة في "سميائية التكريم"

جمال حضري– الجزائر

الاشتغال بنص التكريم سيميائيا له مصادرات واعتبارات ولكنه لا يند عن الخضوع للمسلك التحليلي بغية رسم خريطة تدليله واكتشاف بناه في مستويات التشكيل المختلفة. وبناء عليه ستتخذ هذه الدراسة من خطاب التكليف متنا ينصب عليه التحليل وسنرى إلى أي مدى ينجح الإجراء من منظور السيميائية القريماسية الكلاسيكية في إخضاع مثل هذا المتن لمثل هذا المنهج.

1– خطاب التكليف مرسلة:

يبدأ النص بالملفوظ: " إلى الفاضل الأستاذ الدكتور ....." وهي صورة خطابية عن الإرسال عامة وتتحقق من هذا التشكيل الخطابي مسارات صورية عدة يتم تحيين مسار "التراسل الأكاديمي" منها، ويتحقق ذلك من خلال جملة من الصور منها: الأستاذ، الدكتور، مكتبة المدارس. وانطلاقا من هذا الاعتبار لابد من اقتضاء وجود هيئة مرسلة وهيئة متلقية لا نجد لها في الواقع النصي إلا ممثلين ينوبان عن الهيئتين، وإذا كان أمر المرسل إليه محسوما تقريبا من خلال الملفوظ " إلى الفاضل الأستاذ الدكتور ....." فإن هيئة الإرسال تطرح إشكالا لابد من تفكيكه.

فخطاب التكليف ينطلق من خطاب غير مباشر يبرز صورة للمرسل المفترض من خلال الملفوظ: "تعتزم مكتبة المدارس إعداد كتاب علمي لتكريم الباحث .." لكن في صلب الخطاب ذاته تبرز صورة سارد يتحدث بضمير الجمع وذلك من خلال هذه الصور: "ندعوكم"، "وعيا منا"، "نهيب بكم"، "نخبركم" ليتم في الأخير تجريد الصور المتعددة التي ترتسم للمرسل في ذهن المتلقي من خلال الصورة "عن اللجنة التنظيمية".

كما يتضمن نص الخطاب ملفوظا آخر يحاول التمثيل للمرسل من خلال تحديد نوعي بذكر الأسماء والوظائف وهو: "المكتبة، في شخص مديرها العام السيد محمد بوغالب"، "اتحاد كتاب

المغرب"، وفي نهاية الخطاب تنضاف صورة أخرى للمرسل من خلال تحديد جماعي بالأسماء الأعلام وهي: "السيد...، السيد ...، ...، "، كما يتم تحديد آخر من خلال الوظائف وهي على التوالي: "المتصرف المدير العام لمكتبة المدارس، رئيس اتحاد كتاب المغرب، باحث أكاديمي، مسؤول عن النشر والطبع."

تبرز لنا هذه المعطيات النصية التصويرية أحيانا والتجريدية أحيانا أخرى بناء مترابطا لهيئة المرسل تجاه هيئة وحيدة للمرسل إليه تعكسه في العمق ثنائية متقابلة مؤقتا، وهي تعدد عكس وحدة (pluralité vs unité)، وتبدو خطاطة الإرسال كما يلي:

	المرسل	المرسل إليه
مستوى العمق:	تعدد	وحدة
مستوى السرد	عامل مرسِل	عامل مرسَل إليه
مستوى الأدوار الغرضية	المنظمون (اللجنة التنظيمية + سيم جزء)	الباحث
مستوى التصوير	مكتبة ..ممثلة في شخص.. + ...	؟

تعليق: خطاب التكليف ليس إذا سطحا واحدا بل هو متراتب، لكن الخطاطة تكشف عن تعدد من جهة المرسل ووحدة من جهة المرسل إليه، وذلك ابتداء من مستوى التغريض إلى مستوى التصوير:

– التغريض (thématisation): تعرض المسار التصويري للتراسل الأكاديمي إلى عملية تغريض تم بمقتضاها إسناده إلى قائمين بالدور الغرضي هم: مدير عام المكتبة، رئيس اتحاد الكتاب، باحث وأكاديمي وناقد، ومسؤول النشر، وعملية التغريض متراتبة أيضا من خلال صورتين فضائيتين متشاكلتين:

– في وسط خطاب التكليف من خلال الملفوظين المتراتبين: "وتتعهد المكتبة، في شخص مديرها العام السيد ..." ثم "بالتنسيق مع إتحاد كتاب المغرب.."

– وفي نهاية الخطاب من خلال ترتيب أسماء الأعضاء من لجنة التنظيم، وبالتالي فإن القائمين بالدور الغرضي تنتظمهم علاقة رصفية تراتبية اندراجية (hyperotaxique) إذا اعتبرنا اللجنة مقولة عليا تتكون من عناصر عدة لا تتساوى في الرتبة.

وبهذا فإن الهيئة نسج من المكونات الدنيا والتصويرية تعكس إيديولوجيا تنظيم الهيئات خاصة وهي تتوجه نحو الأفراد بخطابها حتى وإن كانت الهيئة ذات سمة علمية وأكاديمية.

– التصوير (figurativisation): تستمر ثنائية تعدد عكس وحدة في الاشتغال تصويريا من خلال تعدد صور هيئة المرسل حيث إن قائمة الممثلين تشمل أربعة أسماء علم مع الوظائف المنسوبة لكل واحد بينما تغيب في المقابل صورة المرسل إليه تماما، وهي حالة خاصة لأن الخطاب في وقائعيته (événementiel) متوجه لكل باحث بالاسم ولكنه في حالة الخطاب الوارد (الذي بين يدي) لازال يحتفظ بحالة التجريد المتوقفة عند مستوى التغريض بما يفتح الخطاب على هيئة للمرسل إليه غير محددة بل محكومة بسياقات التواصل المحتملة وهو ما أشرنا إليه بعلامة الاستفهام الدالة على المجهول (؟).

2– **خطاب التكليف مشروع :** لنلاحظ هذه المسارات الصورية:

-تعتزم مكتبة المدارس إعداد كتاب علمي لتكريم الباحث الأستاذ الدكتور ...

-وتتعهد المكتبة، في شخص مديرها العام السيد ...، بالتنسيق مع إتحاد كتاب المغرب لتكريم كتاب مغاربة آخرين سنويا تنويها بذكرهم وإسهاما في التعريف بإنتاجاتهم العلمية الرصينة

ينتظم هذين المسارين تشكيل خطابي عام هو "التكريم" باعتباره سلوكا اجتماعيا عاما، يتفرع عنه "التكريم الأكاديمي" الذي غدا أحد سمات العلاقات العامة هذه الأيام، ولعل خصوصية هذا التشكيل أنه حيَّن مسارا تصويريا ضمن بعد سيميولوجي نسميه: الوجاهة العلمية ويقطعه معنم سياقي نستشفه من تعالق الصور واللكسيمات نسميه: التكريس، ومنه نخلص إلى شبكة التقاطع التالية:

التشكيل الخطابي	التكريم
المسار الصوري	التكريم الأكاديمي
التشاكل السيميولوجي	الوجاهة العلمية
التشاكل الدلالي	تكريس عكس إلغاء

يغطي المسار الصوري "التكريم الأكاديمي" برنامجا سرديا هو عبارة عن مشروع معلن ينفصل وفق مقولة زمنية هي: شروعي عكس ديمومة إلى:

-مشروع تكريم الدكتور ...

-ومشروع تكريم كتاب مغاربة آخرين

كما ينفصل هذا المشروع وفق مقولة الجهة تحيين عكس افتراض إلى:

-مشروع محين هو تكريم الدكتور...

-ومشروع مفترض هو تكريم كتاب مغاربة آخرين

وبالتالي نجد المشروع منطويا على صيغ تمظهر وصيغ وجود متشابكة و"متخادمة" بحيث يعتبر المحين منهما بمثابة برنامج شروعي واستهلالي (inchoatif) بالنسبة لمشروع مفترض أدوم (duratif) سيمتد لمكرمين آخرين كما أن تحيين الأول منهما يبقي الثاني في حالة الكمون وكأننا بصدد علاقة مجازية بين طرفين: الجزء والكل، ينبئ الأول منهما على إمكانية الثاني.

3- خطاب التكليف توزيع سردي

بالفعل نحن أمام متتالية سردية بوضعياتها وعواملها ووظائفها المكسوة بممثليها وأدوارها والمحددة بفضاءاتها. في مستوى التخطيب لدينا المسار الصوري "التكريم الأكاديمي" والذي يقتضي مكَرَّما ومكرِّما وبالطبع وظيفة التكريم، تم تصوير "التكريم" من خلال الملفوظ " إعداد كتاب علمي" وهو ما يوافق سرديا موضوعا استعماليا إذا اعتبرنا تكريس الوجاهة العلمية هي موضوع القيمة، وبالتالي لدينا برنامج استعمالي يواكب برنامجا سرديا أساسيا، يتمثل الأول في تأليف كتاب علمي ويتمثل الثاني في وضع المحتفى به في موقع يليق به كرائد بالنسبة للأجيال التالية له.

- **البرنامج الاستعمالي:** - موضوعه هو –كما سلف- إعداد كتاب علمي ضمن المجالات المحددة وهي:

-إعداد دراسة مونوغرافية عن أحد كتبه.

2-إنجاز دراسة شاملة حول مشروعه العلمي.

3-تحليل القضايا الكبرى التي شغلته في مسيرته العلمية.

4-معالجة قضية محددة (النسقية أو التصوف أو التعددية المنهاجية أو السيمائية...).

5-إبراز قدراته على تحقيق المتون العربية القديمة.

6-بيان مكانته العلمية في النقد والبحث العربيين.

وذات الفعل المدعوة لإنجازه هي: "الفاضل الأستاذ الدكتور ....." المندرجة ضمن المقولة الضمائرية "أنتم" التي يستخدمها الخطاب في صلبه، بينما تتأسس هيئة الإرسال –كما سبق بيانه- في صورة تم تحديدها بـــ"مكتبة المدارس" بالنسبة للمشروع المحين إضافة إلى " إتحاد كتاب المغرب " بالنسبة للمشروع الافتراضي، وهذا ما يوافق سرديا المرسل، بينما يتعين الآن تحديد المرسل إليه الذي يقوم بتقييم الإنجاز والذي تحدد في مستوى التصوير بـــ" وستتكلف لجنة علمية بفحص الدراسات والأبحاث المعروضة عليها وتحكيمها " وهي هنا هيئة المرسل إليه.

بهذا تتحدد بنية العوامل التي تؤطر برنامج الاستعمال هذا:

مستوى السرد	المرسل	الموضوع الاستعمالي	المرسل إليه
مستوى التمثيل	مكتبة المدارس	كتاب علمي	لجنة علمية + اتحاد كتاب المغرب
مستوى السرد	المساعد	ذات الفعل	المضاد
مستوى التمثيل	الفاضل		

- **البرنامج الرئيسي** : إذا تحدد موضوع القيمة بـــ"تكريس المكانة العلمية" فينبغي تحديد ذات الفعل التي تنجز هذه المهمة وقد تكفل خطاب التكليف ببيانها من خلال عدة ملفوظات تندرج ضمن المقولة الضمائرية "نحن = نا" والتي تشمل تصويريا أعضاء اللجنة التنظيمية، بينما يتحدد المرسِل من خلال الملفوظات التالية:

-" تقديرا لما أسداه من خدمات جليلة في تطوير البحث العلمي ....."

-" وعيا منا بأن أفضل تكريم وأسمى تقدير هو ..."

لدينا هنا مساران يصوران جهة الإرسال في ممثلين مختلفين هما:

-الخدمات الجليلة في تطوير البحث العلمي

-الوعي بالطريقة المثلى للتقدير

والممثل الأول خارجي بالنسبة لذات الإرسال بينما الثاني ذاتي وبالتالي نكون هنا بصدد مفصلة لجهة الإرسال من خلال مقولة: خارجي عكس داخلي(interoceptif vs exteroceptif) ، وكذلك مقولة عملي عكس ميثي (pratique vs mythique).

أما المرسل إليه فهو يتحدد في شخص المحتفى به باعتباره الهيئة المستفيدة من اتصال ذات الفعل بالموضوع، فنجاح اللجنة التنظيمية في تكريس المكانة العلمية للمحتفى به يعني استفادته من تحقيق هذه العلاقة:

مستوى السرد المرسل موضوع القيمة المرسل إليه

مستوى التمثيل الخدمات الجليلة .. تكريس المكانة العلمية المحتفى به
= د.مفتاح
+ الوعي بـــ..

مستوى السرد المساعد ذات الفعل
المضاد

مستوى التمثيل اللجنة التنظيمية

أين البعد التزاعي للبرنامج؟

لقد بقيت وضعيتا المساعد والمضاد في الترسيمتين فارغتين، مما يدفع بطرح التساؤل المشروع عن بنية التزاع التي يفترضها التشكيل السردي، هل نحن بصدد بناء وصفي وتبادل سلمي للموضوعات أم أن الكمون يغلف هذه البنية ولا يتم الوصول إلى مظهرة من يشغل تلك الوضعيات الكفيلة بإضفاء التزاع على هذا النمط من الخطاب إلا بتشغيل آلية الاقتضاء والتضمين.

– **البعد التزاعي للبرنامج الاستعمالي:** تتجه ذات الفعل ممثلة في الباحث باعتباره مقولة عامة إلى موضوعها المتمثل في إنجاز كتاب علمي، وهذا الموضوع له طبيعة خاصة تتمثل في تكوينه التساهمي (constitution participative) ما يعني من جهة أخرى تعدد ذات الفعل (syncrétisme actoriel)، وهذه الطبيعة المتناظرة للموضوع ولذات الفعل لا تعني تكافؤا تاما (équivalence absolue) بل الأمر خلاف ذلك تحديدا، فمقابل تعددية الموضوع الموسومة بـــ: المحدودية لدينا تعددية ذات الفعل الموسومة بـــ: لا–تحديد في نطاق الاختصاص العلمي. وبالتالي لدينا البنية الكامنة التالية:

(كل) مساهم ≠ (كل) كتاب علمي

(كل) لا مساهم = (كل) لا كتاب علمي

تعليق: فإذا صحت المكافأة بين (كل) لا مساهم وبين لا كتاب علمي من حيث كون انعدام المساهمين يؤدي ضرورة إلى انعدام تكوين الكتاب العلمي، فإن الطرفين العلويين للمقولتين لا يتكافآن لأنه ليس بكل المساهمين يتكون الكتاب العلمي وبالتالي لابد من تعديل التكافؤ ليصبح:

(بعض) مساهم ⇒(كل) كتاب علمي

(بعض) لا مساهم ≠ (كل) لا كتاب علمي

وضمن هذه العلاقة تتحدد بنية التراع من حيث انطواء العلاقة على عملية انتقاء فكون:

بعض المساهمين يؤدي إلى تكوين كل الكتاب العلمي

وكون بعض غير المساهمين لا يؤدي إلى انعدام تكوين الكتاب

يعني أن جوهر التراع هو في الحصول على المساهمة في تكوين الكتاب.

وبالتالي يمكننا الآن استنباط المضاد باعتباره كل الآخر: مما يعني تضايفا لبنيتين عامليتين هما ذات الفعل والعامل المضاد في دور تمثيلي واحد هو المصور غرضيا في الخطاب بـــ"الفاضل.." فكل ممثل هنا يؤدي دور ذات الفعل ودور المضاد لغيره في آن واحد.

وبقي دور المساعد الذي لن يتجسد خطابيا لأنه يصادر على وجود كل مكونات الكفاءة في المتصدي لأداء دور ذات الفعل وبالذات معرفة الفعل.

هل تعدد ذات الفعل مكافئ لتعدد ذات الإرسال؟

يتبين من التحليل، أن التعدد في المرسل مشوب بتراتبية مقصودة تنبئ عن إيديولوجيا تشكيل الهيئات بينما تعددية ذات الفعل مشوبة بالتكافؤ المنبئ عن تماثل الكفاءة العلمية وانعدام التراتبية وهي السمة التي تغيب لو كنا بصدد "خطاب الإجازة" مثلا والذي ينتهي بترتيب ذوات الفعل بما يناسب مقادير التتويج.

-**البعد التراعي للبرنامج الرئيسي** (dimension polémique): من خلال تشغيل آلية الاقتضاء لابد من الوصول إلى بينة نزاعية كامنة تفرضها سردية خطاب التكليف، وبما أن الوضعيات السردية التي تحددت لحد الآن لم يظهر منها من يشغل مواقع المضاد فسنعمد إلى الاختبار للوصول إلى الهيئة التي ستشغلها.

تصادر الخطاطة السيميائية للسرد على اعتبار العلاقة بين ذات الفعل وموضوع القيمة هي محور البنية العاملية كلها، وانطلاقا من ذلك وجدنا أن المستفيد من العلاقة ذاتها تمثل في مستوى التصوير في المحتفى به (وهذا في الواقع تحديد غرضي وليس تصويريا) وفي مستوى السرد هو المرسل إليه، أما المضاد فهو عادة المتضرر من تحقق تلك العلاقة **!!**

من هو المتضرر إذا ؟

هناك احتمالات عدة يمكن أن يمسها الضرر، ونحن على سبيل الاقتضاء نجملها في ما يلي:

-من فاتته فرصة السبق إلى الاحتفاء: وهذا ما لا نجد له في سطح الخطاب ما يعكسه، ولكنه مقتضى الخطاب من حيث أن الاحتفاء كان مفتوحا لكل الفاعلين أفرادا ومؤسسات، فالمبادر به أبقى في حال الافتراض كل الفاعلين المحتملين الذي ربما هم الآن يتأسفون لفقد زمام المبادرة، والتزاع هنا قائم على موقع ذات الفعل.

-من فاتته فرصة المشاركة في الاحتفاء، أفرادا أو مؤسسات وبالتالي فهو ينازع على موقع تساهمي ضمن هيئة ذات الفعل.

-من يطرح نفسه ندا للمحتفى به وبالتالي ينازع موقع المرسل إليه بالذات.

-من ينازع موقع المرسل إليه مع طرح غيره وليس ذاته.

-من يغفل عن هذا الدور و لم ينتبه له ممن هو مظنة للقيام به من الرسميين والزملاء والتلاميذ الخ..

-من لا يعي صيرورة الفكر وحيويته من خلال إرساء مثل هذه التقاليد..

وهكذا تنفتح الإمكانات على عدة صور، كلها تثبت أن هذا النمط من الخطاب الهادئ جدا الرفيع والمترفع فعلا، لا يبرح ساحة التزاع والصراع.

وبهذا تكتمل الخطاطة ويتم سداد مجمل المواقع الضرورية لموقعة خطاب التكريم ضمن المدونات القابلة للتحليل السيميائي السردي.